

العلاقات التجارية والثقافية بين الهند والدول العربية بالتركيز على ولاية كيرلا

بقلم: نشاد علي الوافي
باحث بجامعة جواهر لال نهرو - نيودلهي - الهند

العلاقات الثقافية والتجارية بين الهند والدول العربية، يرجع تاريخها إلى نحو سبعة آلاف سنة قبل الميلاد. يدل على ذلك وفرة المنتجات والبضائع والبخور والعطور والتوابل والأحجار الكريمة والأقمشة الواردة من الهند والموجودة في تلك الحقبة بمصر وفلسطين والمملكة العربية السعودية. وتثبت الوثائق التاريخية أن العلاقة التجارية بين الهند والعرب ظلت ممتدة منذ عهد سليمان (عليه السلام) إذ وصلت السفن من الخليج إلى ميناء كيرلا لتحمل الذهب والعاج والقرد والطاؤوس.

ويُذكر أن العرب عندما نزلوا شواطئ الهند في كيرلا، أعجبهم منظرها وما تتمتع به من الخيرات فسمّوها «خير الله» ثم تحرّف الاسم ليصبح كيرلا.

هذه العلاقة الممتدة في عمق التاريخ، توثقت في العصر الحديث بالتحديد بعد الحرب العالمية الثانية حين تكاتفت الجهود ضد القوات المستعمرة خصوصا البريطانية وبلغت العلاقات أوجها عندما التقى الرئيس الهندي جواهر لال نهرو وجمال الدين عبد الناصر في حركة عدم الانحياز وفي مؤتمر باندونغ الشهير في العام ١٩٥٥م مع سوكارنو وتيتو وآخرين. ففتح اللقاء أبواب العلاقة الحميمة بين الدول العربية وبلاد الهند، وأعطى دفعة قوية للشراكة الاقتصادية والتجارية على وجه الخصوص. وقامت علاقات خاصة بين الهند والمملكة العربية السعودية، حيث كانت زيارة الملك سعود بن عبد العزيز عام ١٩٥٥م فاتحة لقاءات مثمرة. وفي السنة التالية ردّ الزيارة رئيس الوزراء الهندي جواهر لال نهرو فقام بزيارة المملكة العربية السعودية. وتتابعت الزيارات تعزيزاً لأواصر الصداقة بين البلدين وتمتين العلاقة الاقتصادية والاستثمارية. فقامت رئيسة الوزراء الهندية إنديرا غاندي بزيارة رسمية إلى المملكة عام ١٩٨٢م وبعد ذلك زار خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبد العزيز الهند. وتم خلال الزيارة التوقيع على إعلان نيودلهي الذي رسخ العلاقة بين البلدين. وحسبما أوردت جريدة «عكاظ» فإن حجم التبادل التجاري بين الهند والمملكة العربية السعودية بلغ ١٠ مليارات دولار خلال عامي ٢٠٠٥م و٢٠٠٦م . وتحتل الهند المرتبة الرابعة من بين أكبر دول المستوردة من المملكة فيما تأتي السعودية في المرتبة الخامسة عشرة في ترتيب الأسواق التي تستقبل الصادرات الهندية.

ولعل الوجود الكثيف للعاملين الهنود اليوم في شتى أقطار الخليج العربي خصوصاً في المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة مظهر آخر لقوة العلاقات بين الطرفين.

وإذا عدنا مرّة أخرى إلى تاريخ العلاقات الثقافية المباشرة بين العرب والهند وجدناها ازدهرت في العهد العباسي . وذلك حين أسس هارون الرشيد «بيت الحكمة» عام ٨٣٠م لترجمة

الكتب من اللغات الأجنبية. فتمت ترجمة «كليلة ودمنة» من اللغة الفهلوية إلى اللغة العربية بيد عبدالله بن المقفع (١٠٦-١٤٢هـ) وشهد هذا العهد نقل الكثير من الكتب العلمية والأدبية من اللغات الهندية والفارسية إلى العربية وخصوصًا في مجال الطب والفلك والرياضيات. وفي عهد الخليفة المنصور (٧٥٤م- ٧٧٥م) وصل وفد هندي إلى بغداد عام ١٥٥هـ ٧٧٢م فاستقبلهم بالترحيب الحار وتولّى بنفسه الإشراف على ترجمة كتاب في اللغة السانسكريتية «سوريا سدهانتا» (Surya Sidhanta) بمساعدة عالم الرياضيات في بيت الحكمة محمد الفزاري.كما استضاف الخليفة عدداً من علماء الفلك والرياضيات من السند وتُرجمت نظرياتهم إلى اللغة العربية. وتواصل هذا التبادل الفكري في مختلف الحقب بدعوة العلماء العباقرة الهنود إلى بغداد وترجمة علومهم إلى اللغة العربية حسبما يقول الجاحظ: «تلبية لنداء يحيى بن خالد البرمكي أتى بغداد نخبة من الأطباء الهنود مثل منكا وبلها وبازغر وفبربل وسنداد». أما منكا فهو الذي ترجم عدداً من الأعمال السنسكريتية إلى اللغة العربية أو من اللغة الفارسية مثل كتاب Charaka Samhita وHridya Astanka وSindhsan وSiddhyoga وNidan.

إن دخول الإسلام إلى منطقة كيرلا الهندية كان في عهد باكر. منذ وصول أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في العهد النبوي إلى سواحل الهند حاملين راية الإسلام البيضاء. وبدأ اهتمام الهنادك باللغة العربية من أجل معرفة أحكام الدين. فانعقدت بالمساجد دروس اللغة العربية يجتمع عليها الناس مع دروس الفقه والقرآن الكريم. وأنشأ أبو عبدالله الحضرمي أول «درس» في كيرلا بمسجد وليكلنكرا (Valiyakulankara) / تانور (Tanur) سنة ١٢٧٦م/ ٦٧٥هـ . وأصبحت دراسة العلوم الإسلامية منذ ذلك تأخذ نظاماً معيناً بأن يسكن الطلبة والأساتذة في المساجد ويتلقى التلاميذ الدروس في التفسير والحديث والفقه والعقيدة والمنطق والبلاغة من الأساتذة مباشرة على طريقة قراءة المعلم الكتب المؤلفة في العربية وترجمتها الشفوية إلى المليالمية. مهدت هذه الحركة سبل تأصيل العلاقة الثقافية بين كيرلا والدول العربية حتى انتهى إلى صقل موهبة أهل كيرلا في ترجمة أهم المراجع في اللغة العربية إلى اللغة الأم. فشهدت كيرلا منذ القرن الثالث عشر الهجري ترجمة معاني القرآن الكريم بقدوم العلامة الفقيه الشيخ محيي الدين عبدالقادر المعروف بماينكوديإليا (١٢٧٠-١٨٥٣م) الذي كتب «ترجمة تفسير القرآن» من ستة مجلدات تضم ثلاثين جزءاً. ويعدّ الجهد المبذول منه في ترجمة تفسير القرآن أول حركة في هذا الاتجاه ببقعة كيرلا ... «ثار الجدل الحار وجرى النقاش الصحيح والحور ترجمة القرآن ووجهة نظر الدين عنها. والسبب الرئيس لإثارة الجدل هذا كان «أن اللغة العربية انتشرت بالهند واعتنى بها علماؤه باعتبارها لغة الدين الشريفة واستخدموها للأغراض الدينية فقط مما أدى إلى إهمالهم الفنون الرئيسية ذات العلاقة بالأدب العربي من القصة والرواية والتمثيلية. الترجمة الثانية في هذا الحقل خرجت إلى الضوء من يد «كي عمر المولوي» لكنها لم تستوعب قواعد الترجمة الكلية في صورتها الكاملة. فيعتبر أول من ترجم القرآن في شكله الكامل بالولاية هو سيان أحمد المولوي الذي رأى عمله النور سنة ١٩٥٣م . وترك بصمة مؤثرة في ترجمة الحديث أيضاً بنقل صحيح البخاري . ثم ترجم «إيكي عثمان المولوي أنداتود (Andathode) كتاب رياض الصالحين. وممن ساهموا مساهمة كبيرة في إثراء المعرفة وسرعة تناقلها «موسانكو ديالترو نغادي» المتوفى عام ١٣٤٧هـ / ١٩٥٤م الذي نقل تحفة المحتاج للشيخ زين الدين المخدومي لأول وهلة بترك أول بابه «الجهاد». وقام بترجمة نفس الكتاب في التسعين إنسي حمزة ونشرته مكتبة الهدى بكاليكوت عام ١٩٩٥م.

ومن أعرق الكتب التي يعتمد عليها العلماء والباحثون والمؤرخون والطلبة للحصول على معرفة تاريخ كيرلا القديم «الفتح المبين للقاضي محمد» . وقد عالج مغامرة البرتغاليين واعتداء قواتهم على مليبار وتاريخ كنجالي مركار. ترجم هذا الكتاب العريق أولا بروفيسر عبدالعزيز المنكدى (Mankada) وكيكي محمد عبدالكريم ثانيا ونشرته المطابع الفارسية (Persian Printers) في مايو ١٩٨٢م. ومن الكتب المضافة إلى هذه السلسلة كتاب «رحلة الملوك» لمولانا الشيخ عمر بن محمد السهروردي الذي يتناول رحلة الملك جيرمان برومال إلى جزيرة العرب إلى جانب تاريخ مؤسس أسرة أركل (Arakkal) بكنور (Kannur) . وفيه أيضاً تاريخ ساموتري . وترجم هذا الكتاب عبدالله كودي وادانبلي (Vadanappally) . وتوجد نسخة أخرى بقلم كي عبدالرحمن عام ١٩٥٨م نشرها من مكتبة آمنة. وقد ألقى هذا الكتاب الضوء على تاريخ ورود السيد علي الكوفي إلى كيرلا. ويوجد هذا الكتاب اليوم في مكتبة كايل بدنم كما يقال ونسخته الإنجليزية محفوظة حتى اليوم بحيدر آباد .

وتأخذنا الدهشة في وقتنا الحاضر حين نعرف أن علماء كيرلا اعتنوا كثيراً بنقل العلوم عن العرب. حتى إنهم ترجموا مقدمة ابن خلدون منذ وقت باكر. ونقلها العلامة مودان شيريل (Muttanisheriyil) كوي كودي ونشرها متسلسلة في مجلة «ماتربومي» (Mathrbumi)

المحلية وجمعت تلك المقالات لتصدر في كتاب بعنوان «مقدمة Maanusha Charithrathin Oramukham» في عام ١٩٨٤م. وأعاد طبعته بعد توليه حقوق النشر الناشر الفائق بولاية كيرلا ديسي بكب عام ٢٠٠٨م. وقال المترجم في مقدمة «المقدمة» أن العنوان الذي رآه أولا هو المقدمة فقط ولكن حين عرض نسخته اليدوية أمام الأديب المشهور ويكم (Vaikom) محمد بشير أضاف إلى العنوان Maanusha Charithrathin Oramukhamالذي أقامه المترجم حين تم إصداره.

ومن الأعمال المترجمة من العربية ترجمة وشرح فتح المعين بقرة العين للشيخ المخدوم الثاني الذي عالج الفقه الشافعي متطرقاً إلى عشرين بابا بداية بباب الطهارة ونهاية بباب الجهاد. وقد تمت ترجمته بأقلام ثلاثة من كبار العلماء هم إبراهيم فتور الفيضي وكيوي إمبان داو وروا مكي محمد كود شيري الفيضي الموقر الذي تخرج من جامعة النورية بفيض آباد والذي يعمل حاليا بمركز التربية الإسلامية بولان جيري ولا يزال يكتب في المجلات الإسلامية.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الشيخ محمد الآلوائي «أول مترجم رواية ملي المية «شمين» إلى اللغة العربية زف بشرى ترجمة «كتاب الهند» للبيروني المسمى «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» وتم نشره بمكتبة وجارم (Vicharam Books) عام ٢٠١١م. ومن البصمات الكبرى للكيراليين في حقل الترجمة: ترجمة تفسير القرآن الكبير للإمام فخر الدين الرازي بمجموعة كتاب أنجزوا تحريراً سليماً لهذا التفسير الذي قام بإصداره Quran for the World عام ٢٠١٠م من كاليكوت.

وتوجد في الوقت الحاضر حركة ترجمة كثيفة من ذلك مثلاً ترجمة للكتاب النادر الذي قبله القراء على نطاق واسع وبيع منه أكثر من مليون نسخة في العالم العربي «لاتحزن» للدكتور عائض القرني تولاه «عبدالرحمن الآدرشيري» ونشرته دار المكتبة العربية بكوتكل كما ترجم كتاب «استمتع بحياتك» «للدكتور محمد العريفي» عام ٢٠١٢م.

ومن ذلك أيضاً «العلاقة الثقافية» الوطيدة التي لا تزال تتكثف بنقل القصائد والروايات والقصص والأقصوصات من اللغة المليبارية إلى اللغة الإنجليزية ومنها إلى اللغة العربية. وعلى رأس هذه الحركة شهاب غانم الإماراتي ومحمد عيد المصري اللذان ترجما الروايات والقصائد المليلامية مثل رواية «مثل ترنيمة» لبرو بدمشريدرن (OruSangeerthanam Pole) نشره مشروع «كلمة» للترجمة والنشر بالإمارات العربية المتحدة عام ٢٠١٠م و «أيام الماعز» لبني أمين نشرته مكتبة الآفاق هذا العام والذي ترجمه سهيل عبدالحكيم الوافي من اللغة الأصلية إلى اللغة الهدف مباشرة. ورأى النور بيد شهاب غانم قصائد كثيرة مترجمة بعنوان «قصائد من كيرلا» عام ٢٠٠٥م تم نشرها من دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة . وجمع فيها خمسين قصيدة لسبعة وعشرين شاعراً وشاعرة بولاية كيرلا مثل قصيدة ويلوبلي (Vailoppilli) وجنكابوزا (Changamuzha) أو.أن. وي (O.N.V) وساتيشاناندان (Sachidanandan) وكدمندا (Kadamanitta) وبالاجندر جوليكاد Balachandran) (Chullikkadu وبالامني أمة (Balamani Amma) وأيبا بنيكر (Ayyappa Panikkar) كما ألف مجموعة قصائد كملا ثريا «رنين الثريا» التي نشرها مشروع «كلمة» بعام ٢٠١٠م . ومؤلفا بعنوان «انتحر يايكو فسكي» نشرها نفس الناشر المذكور للتو عام ٢٠٠٩م وهي تحتوي على خمسين قصيدة من شعر سات شيداناندان وترجم مزيدا من القصائد الهندية تقريبا ثمانين قصيدة لثلاثين شاعراً معروفاً أمثال قصيدة ميرزا غالب ورابندرانات طاغور بعنوان «قصائد من الهند» نشره مشروع «كلمة» في الإمارات أيضاً.

المصادر والمراجع

أ. مقابلة مع غانم «شهاب عبر البريد الإلكتروني يوم العشرين من مارس ٢٠١٤م.

ب. مقابلة مع عيد إبراهيم يوم الحادي والعشر من مارس ٢٠١٤م.

ت. رئيس التحرير: د. عبدالله «المدير كاركن الشيخ» دائرة المعارف الإسلامية «الجزء الثاني». الناشر: IPH «كاليكوت» ١٩٩٧م «مايو» ISBN: ٨١٧-٣٤٥-٧٢٠٤

ث. حمزة «سي» ترجمة تحفة المجاهدين «مكتبة الهدى» الطبعة الرابعة» ٢٠٠٧م.

ج. Prof.Muhammed,K.M, ARABI SAHITHYATHIN KERALTHINTE SAMBHAVANA, ASHRAFI BOOK CENTRE, 2012

ح. N. Koyakutty,MuttaniSheriyil, MUKKATHIMA MANUSHA CHARITHRATHIN ORU AAMUKHAM(Translation of MukhadamaIbnuKhaldoon), , D C Books, First DCB Edition, 2008

خ. Aluwayee, Muhammed , 'Al-BirooniKandha India' (Translation of Kitabul Hind- Albirooni), Vicharam Books, 2011